

جوانب تربوية ونفسية من مقدمة ابن خلدون (ملخص كتاب)

مصباح محمد*

جامعة أحمد بن يحيى الوثشريسي، الجزائر

قبل بتاريخ: ٢٠١٧/٣/٢

استلم بتاريخ: ٢٠١٧/١/١٥

ملخص: من يتفحص "مقدمة" ابن خلدون يلاحظ أنها ليست بحثاً في التاريخ والاجتماعيات فحسب؛ بل إنها مبادئ ونظريات لدراسة مسائل تربوية ونفسية أيضاً، إلى جانب فروع شتى من العلوم والفنون والآداب، وهو يبين فيها آراء قيمة، بعضها يقره عليها علم التربية وعلم النفس المعاصر؛ وبعضها قد مر ضمن تجارب الزمان، وفي ورقتنا هذه، مختصر لخصنا فيه أهم ما تعلق بموضوع التربية ونفسية المتعلم.

كلمات مفتاحية: تربوية، تعليمية، نفسية، المقدمة، ابن خلدون.

The Educational and Psychological Aspects in the "Introduction" of Ibn Khaldun

Mssabih Mohamad*

Ahmad Bin Yahya Alwanshareesi University, Algeria

Abstract: Anyone who wants to examine the "Introduction" of Ibn Khaldun (al mukadimah) notes that it is not in search of history and social studies only; it is the principles and theories to the study of educational and psychological issues as well, along with a variety of Sciences, Arts and Letters branches, which it shows the views of value, some of them approved by the pedagogy and science of modern psychology; some have passed within the time trials. In this paper, we summarize the most important aspects attached to the subject of education and the psychology of the learner.

Keywords: Educational, learning, psychological, introduction, Ibn Khaldun.

*messabihmah@yahoo.fr

استهلال منهجي

متى ما رأينا أمة أكثر فيها المتعلمون الواعون المدركون لمسئولياتهم، فإننا نجزم بأن هذه الأمة تسير على نهج تعليمي جيد، ومتى ما تفشت الأمية وقل المتعلمون فإننا نجزم بأنه لاحظ للتعليم في هذه الأمة. وقد وضع الفقهاء المسلمون خصالا ينبغي توفرها في معلم الكتاب قديما، فالقاسي يرى أنه ينبغي أن يكون مهيبا لا عنيفا، ولا يكون عبوسا مغضبا ولا مبسطا، مرفقا بالصبيان دون لين، وينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم ولقد أيطت مهمة الإشراف على معلم الكتاب بالمحتسب فاشتراط بهذا المعلم أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظا للكتاب العزيز، حسن الخط، ويدري الحساب، والأولى أن يكون متزوجا" (محمد منير سعد الدين، ٢٠٠١ ص ٤٧)، فمن هذا المنطلق سنحاول إثبات أن المسلمين القدامى كانوا أصحاب رؤى ومناهج في التربية والتعليم، كما في شتى أنواع العلوم الأخرى.

آراء ابن خلدون التربوية

لقد انتبه دارسوا "المقدمة" إلى ما تتضمنه من آراء في التربية والتعليم و على رأسهم العلامة ساطع الحصري الذي يقول: "في مقدمة ابن خلدون آراء وملاحظات كثيرة عن التربية والتعليم، إن قسما من هذه الآراء مدون في فصول خاصة في الباب السادس - باب العلم والتعليم - وهذه الفصول الخاصة هي التي تلفت عادة أنظار الذين يدرسون المقدمة، من وجهة التربية والتعليم،" (ساطع الحصري، ١٩٤٤، ص ١٠٠)، ثم يعقب قائلا: "ولكننا نلاحظ أن آراء ابن خلدون في التربية والتعليم لا تنحصر في الفصول المذكورة، حتى إنها لا تتمثل تمثيلا كافيا بمباحث هذه الفصول؛ لأن ابن خلدون قد دون كثيرا من الآراء والملاحظات التربوية في ثنايا الفصول المختلفة، بصورة عرضية، فإذا أردنا أن نحيط علما بكل ما كتبه في التربية والتعليم يجب علينا أن نقوم بأبحاث واسعة النطاق في سائر فصول المقدمة" (ساطع الحصري، ١٩٤٤، ص: ١٠١)، ومن هذا

تتضح أهمية ما رآه ابن خلدون في مجال التربية، والذي نجمه فيما يلي:

١. طبيعة الإنسان والتربية عند ابن خلدون:

تميز الإنسان بالعقل: يرى ابن خلدون أن الإنسان يتميز عن الحيوان بعقله وتفكيره وما يحصل لديه من انتظام في جوانب حياته كلها، ولا يصبح إنسانا بالمعنى الصحيح للكلمة، إلا بعد أن يبلغ سن التمييز، التي تفصل بينه وبين الحيوان، حيث يقول: "وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز؛ فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لا حق بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك؛ فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر" (ابن خلدون، ٢٠٠٧ ص: ٤٨١)، بيد أن الفكر ليس كله على درجة واحدة بالنسبة إلى ابن خلدون.

فهو يميز فيه ثلاثة أنواع من العقل، هي العقل التمييزي، والعقل التجريبي، والعقل النظري، ولكي نفهم الفرق بين هذه العقول، لا بد لنا من فهم الوظيفة التي يقوم بها كل منها:

العقل التمييزي: فهو أول العقل؛ وهو الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان، وبه يبدأ العلم، إن وظيفته الأساسية هي تنظيم أفعال الإنسان بمدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر، فيقول ابن خلدون "وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص ٤٨١).

العقل التجريبي: فهو العقل المرتبط بالتجربة في الحياة اليومية، ووظيفته اقتناص العلم؛ علم ما هو صالح، وما هو فاسد؛ ويكون ذلك باستفادة المرء من أبناء جنسه؛ فقال: "يقتص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، وهو العقل التجريبي" (المصدر نفسه، الصفحة نفسها).

أما العقل النظري فيبلغ أعلى مستويات التجريد، بإنشائه التصورات التي ينتزعها من الموجودات؛

ظل حضارة المدن ذات العمران، من أن يتأثر بتلك الصنائع والعلوم؛ فیتعلم أموراً كثيرة لا يمكن للبديوي أن يتعلمها إلا إذا طلبها في هذه المدن، ونلمس ذلك في قوله: "فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع، ومن تشوف بفطرته إلى العلم، ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي، لفقدان الصنائع في أهل البدو ...، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٤١)، وإذا كان العقل بطبيعته ميالاً إلى تحصيل العلم، والعمران محفراً له، فإن حسن تعلمه، وتمكنه من ملكاته، يجعله سريع الإدراك، حاد الذكاء.

يقول في ذلك: "وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية، تزيد الإنسان ذكاءً في عقله وإضاءةً في فكره ...، إذ قدمنا أن النفس إنما تتشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، ... ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو، كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى إن البديوي ليظن أنه قد فاتته في حقيقة إنسانيته وعقله، وليس كذلك. وما ذاك إلا لإجادته من ملكات الصنائع. والآداب، في العوائد والأحوال الحضرية، مما لا يعرفه البديوي" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص ٤٤١).

التعليم بالمعلم الكفؤ

وفي رأيه أن التعليم لا بد له من معلم يسهل الصعوبات، ويوضح الغوامض، كما أن جودة تكوين الأستاذ لها دخل في جودة تعلم المتعلم، فيقول: "لهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل ..وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٠٤)، فقد "افترض ابن خلدون أن التعليم صناعة، نجاحها وفشلها، مرتبطان بالقائمين بها، وأن المعلمين هم

فتكون مطابقة لها في حالتي الحضور والغياب، فيقول: "يحصل به في تصور الموجودات غائباً وشاهداً، على ما هي عليه، وهو العقل النظري." (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٧٢) ومن هذا نلاحظ أن الإنسان ينتقل من الفوضى إلى النظام، ومن النفور في المعاملة إلى التوافق الاجتماعي، ومن الجهل بحقيقة الموجودات إلى العلم بها، إذ كل هذا لا يتم من دون اكتساب؛ فحياة الإنسان هي انتقال من الجهل إلى العلم؛ فهو جاهل الذات، عالم بالاكْتساب.

٢. شروط حصول التعلم لدى ابن خلدون:

يرى أن التعلم لا يحصل بعفوية، بل له شروط تؤدي إليه منفردة أو مجتمعة، وإذا اجتمعت وتضافرت فيما بينها، كانت نتيجة التعلم أحسن وأقوى، فما هذه الشروط؟

طبيعة الفكر ذاته:

يرى أن الفكر ميال بطبيعته إلى تحصيل المعرفة، وتعلم فنونها، إنه يقتنص حقائقها حقيقة بعد أخرى، لإشباع رغبة فيه تظل تلح عليه باستمرار يقول في ذلك: "عن هذا الفكر تتشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع، ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع، فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٣٧)، وهذا يعني، أن العلم ناشئ عن طبيعة الفكر ذاته؛ وأن التعلم ميل طبيعي في الإنسان، قد يكتسبه بنفسه من التجربة، أو قد يأخذه عن سواه ممن يزيده علماً.

العمران والحضارة

يرى ابن خلدون أن الفكر وحده قليل الغناء، ولذلك كانت كثرة العمران وعظمة الحضارة مؤديتين إلى انتشار العلوم والصنائع، وكان لا بد لمن ينشأ في

يحصل علما، وبين العالم النحرير، والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون سواهما،" (المصدر نفسه، ص ٤٣٨)، وهذا يعني أن الملكة عادة ناتجة عن صناعة من الصنائع، ونظرا لأن ابن خلدون يعني بالصناعة معناها الشامل الذي يشمل اللغة والآداب والفنون، فقد كانت الملكة لديه نظرية وعملية، أي فكرية وبدنية.

٣. تصنيف ابن خلدون للعلوم:

يميز ابن خلدون بين نوعين من العلوم: علوم مقصودة لذاتها، وعلوم هي وسيلة لغيرها، فقال: "اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة، وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم، كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات، وكان المنطق للفلسفة...، فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتضريح المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة، وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط." (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٨٧) فهو يرى أن هذه العلوم هي التي يجب أن يهتم بها المتعلمون، و التي ينبغي لهم أن يقطعوا العمر في تحصيلها، والنفاد إلى حقائقها، ولهذا لا بد للمعلمين أن يستبحروا فيها، وأن يتوقفوا عند كل كبيرة وصغيرة فيها، وأن يناقشوا براهينها ومدى صحتها واستقامتها، لكي يخرج المتعلم منها وقد نفذ إلى حقيقتها، وعرف كل ما يتعلق بها، فهذا كله من شأنه أن يمكن المتعلمين مما هم بصدد تعلمه، ويفتح بصائرهم على معانيها المقصودة، وينتهي بهم إلى الحصول على ملكة راسخة فيها.

أما العلوم الآلية، فهي وسيلة لتعلم العلوم المقصودة بالذات، كما تشير إلى ذلك تسميتها، ويعد ابن خلدون اللغة العربية والحساب والمنطق من هذه العلوم، كما يرى أن هذه العلوم التي هي آلة

سند هذه الصناعة، لذا لا بد من أن تتوفر فيها شروط وآداب وقوانين، "شمس الدين، ١٩٨٦، ص٧٩).

استخدام العلم.

شروط التعلم السابقة لا تنتهي بتعلم المتعلم إلى كماله، إذا لم يستخدم المتعلم العلوم التي تعلمها بالإفصاح والمحاورة، يقول ابن خلدون شارحا فكرته: "وأيسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها، فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكووتا لا ينطقون ولا يفاضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة،" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٣٩).

كما يسهب هذا المفكر العظيم في تحديد الملكة الفردية وتمييز ما هو خلقي منها وما هو مكتسب بالتعلم والدربة، كما تسميه النظريات التربوية الحديثة (الفروق الفردية).

حصول ملكة العلم بالتعلم

رأينا أن هناك شروطا للتعلم إذا اجتمعت وتضافر بعضها مع بعض في نفس المتعلم أدى ذلك إلى حصول ملكة عنده في العلم الذي تعرض له، إذ يقول: "إن الحذق في العلم، والتفنن فيه، والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله، واستباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة، لم يكن الحذق في ذلك المتناول حاصلا" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٣٨)، ولكن ينبغي لنا أن لا نخلط بين حصول الملكة والفهم والوعي؛ لأن ذينك يشترك فيهما الناس جميعا، من عالم وعامي؛ وهما نقطة الانطلاق لتحصيل الملكة، يقول ابن خلدون مفرقا بينهما وبين الملكة: "وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعياها، مشتركا بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم

في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضا ... من المنظوم والمنثور، ... فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة" (ابن خلدون، ۲۰۰۷، ص: ۶۱۲).

٦. طرائق تعليمية خلدونية:

يرى ابن خلدون أن كثرة من المعلمين في زمانه يجهلون طرائق التعليم وإفاداته، مما يجعلهم يعتقدون بأن التعليم الجيد هو الذي يكون بعرض أمهات المسائل أمام المتعلم، في سبيل إعمال فكره فيها، وإيجاد حلولها، فيقول مبينا ذلك: "وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعليم وإفاداته؛ ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه، المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها؛ ويحسبون ذلك مرانا على التعليم، وصوابا فيه؛ ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله؛ ويخلطون عليه بما يلحقون له من غايات الفنون في مبادئها؛ وقبل أن يستعد لفهمها" (ابن خلدون، ۲۰۰۷، ص: ۵۸۴). فهذا النمط من التعليم - حسب - سيء ومنفر

الاستعداد النفسي للتلقي

إن هذا النوع من التعليم سيئ في رأي ابن خلدون، وليس له من نتيجة سوى ابتعاد المتعلم عن التعليم، وهجرانه له. يقول معللا: "وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات، وهو حينئذ عاجز عن الفهم و الوعي، وبعيد عن الاستعداد له، كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه، وانحرف عن قبوله، وتمادى في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم" (ابن خلدون، ۲۰۰۷، ص: ۵۸۴)، وإذا أمعنا النظر قليلا في هذا الكلام، وجدنا أن ابن خلدون يريد أن يبيّن طريقة التعليم على أساس معرفة الأصل النفسي الذي يعتمد عليه، وهو الاستعدادات.

تشبئة الاستعدادات ونموها بتدرج

يرى عالم عصره أن الاستعدادات النفسية لدى المتعلم قابلة للنمو، ونموها يحصل بالتعليم، إلى أن

لغيرها، يجب أن يقتصر في دراستها على الأهم دون سواه، وأن لا تفرع فيها المسائل، لأنها ليست هي المقصودة من العلم والتعليم .

٤. التأليف وعلاقتها بالتحصيل العلمي:

لا يقتصر ابن خلدون على تحديد العلوم التي ينبغي التوسع فيها، والتي لا ينبغي فيها ذلك، بل يشير أيضا إلى أن كثرة التأليف تعيق تحصيل العلوم، والتأليف المختصرة مغلة بأسباب التعليم، فيقول: "اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، ... فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها،" (ابن خلدون، ۲۰۰۷، ص: ۵۷۹) وذلك لأن المصطلحات المستخدمة في بعضها تختلف عن تلك المستخدمة في الأخرى، وكذلك الطرائق المتبعة في التأليف والإيضاح ليست واحدة فيها جميعا، وهذا وذاك من شأنهما أن يضيعا عقول المتعلمين، ويخلقا المصاعب أمامهم، فيعجزوا عن استحضار ما ورد في هذه التأليف، وكأنني بابن خلدون يعيش بين ظهرانينا، ويعايش معاناة طلبتنا ومتعلمينا مع كثافة المواد (الأنشطة)، وسيول المصطلحات المتدفقة يوما بعد يوم.

٥. كيفية اكتساب اللغة العربية:

لما رأى ابن خلدون أن التعلم لا يتم من دون وسيلة؛ وهذه الوسيلة هي اللغة التي بها نتعلم و نعبّر عن خوالج نفوسنا، وفق ضروب التعبير التي تعلمناها وانطبغنا بها، فقرر أنها ملكة، ووجه تحصيلها هو الحفظ والتدريب على أساليب الأوائل، فقال: "إلا أن اللغات، لما كانت ملكات ...، كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات، ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة، ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب

٨. مبادئ تعليمية خلدونية:

وفي معرض حديث ابن خلدون عن الصنائع، يتطرق إلى العديد من المبادئ العلمية التعليمية وهي تصدق على تعلم العلوم والآداب والفنون كما الصنائع على حد سواء، نظرا لأنه يفهم الصناعة فهما واسعا، ومن هذه المبادئ:

مبدأ الانتقال من البسيط إلى المركب

حيث يرى ابن خلدون أن الصنائع منها البسيط ومنها المركب، وإن تعليم البسيط متقدم على تعليم المركب، ويعمل ذلك فيقول: "إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكفايات، والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله، فيكون سابقا في التعليم، ويكون تعليمه لذلك ناقصا" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٤٠٤). وهذا ينطبق على التعليم، إذ إن التعليم من جملة الصنائع، وهذا ما هو عليه وضع المناهج اليوم في تسلسلها المنطقي والسلس من الأبسط إلى البسيط إلى المركب حتى المعقد من المسائل.

مبدأ التراكم المعرفي

إن التعليم يحصل من علم إلى علم، بحيث يؤدي فهم بعض العلم إلى فهم بعضه الآخر، يقول ابن خلدون: "لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم، استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها على النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك للمعارف" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٨٣)، وهكذا نجد أن ابن خلدون يعتقد بإمكان انتقال أثر التعليم، لا ضمن العلم الواحد والصناعة الواحدة فقط، بل من علم إلى علم، ومن صناعة إلى صناعة أيضا، وفق مبدأ التراكم للمعارف والكفايات.

يصل إلى غايته، وذلك بفضل التعود المستمر والتكرار، فيقول مفصحا عن وجهة نظره: "فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تتشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلا في القليل، وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا، بمخالطة مسائل ذلك الفن، وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٨٤)، هاتان الحقيقتان النفسيتان ترسخان مبادئ تربويين موازيين لهما، وقائمين عليهما، أما المبدأ الأول فهو مراعاة الاستعداد عند المتعلم، وأما المبدأ الثاني فهو مراعاة مستويات الاستعداد. ومن خلال هذين المبدأين تنتج نظرية ابن خلدون في التكرارات الثلاثة، التي عدها الطريقة الصحيحة في التعليم، وهي التي سنتطرق لها في العنصر الآتي:

٧. نظرية التكرارات الثلاثة:

ساق عالم عصره نظريته في التكرارات الثلاثة في قوله: "أعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا، إذا كان على التدرج، شيئا فشيئا وقليلا قليلا، يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتى ينتهي إلي آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة فيه، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفى الشرح والبيان، ... إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضعه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاثة تكرارات" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٨٣).

مبدأ المباشرة والمعينة عن كُتب

ينبه ابن خلدون إلى أن المرء لا يستطيع تعلم صناعة من الصنائع ما لم يباشرها ويعاينها بنفسه، إذ يقول: "أعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عمليا هو جسماني محسوس، والأحوال الجسمانية المحسوسة، نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته، ... ونقل المعينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة على الخبر." (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص٤٠٥)

• **مبدأ ارتباط العلوم والإدراكات بالمحسوسات**

بمعنى انبثاق التطهير من الواقع المحسوس أو المفترض، كما بين العلم الحديث الذي يرى فيها الموضوعات العلمية موضوعات منشأة عن الموضوعات المحسوسة، فـ " العلم ينطلق من الواقعي ليبتعد عنه مادامت المعرفة ليست هي الملاحظة الحسية، بل هي خلق لكلام جديد وإضافة إلى الواقع الذي تنطلق منه، إن المعرفة تحويل للواقع المعطى وتغيير له، ... " (حنون مبارك، ١٩٨٧، ص ٢١)، وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون عندما قال: "النفس الناطقة للإنسان، إنما توجد فيه بالقوة، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولا، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكا بالفعل وعقلا محضا،" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص٤٣٥)

٩. قواعد في المبادئ التعليمية:

لا يكتفي ابن خلدون بوضع هذه المبادئ التعليمية، بل يوجه المعلمين لاتباع قواعد ثمانية منها: قاعدة الكتاب الواحد وقاعدة المواظبة على

المجالس، وقاعدة تجنب خلط العلوم، وقاعدة تجنب العقاب بالضرب والتعنيف.

أولا: قاعدة الكتاب الواحد

ينصح ابن خلدون المعلمين بالاكتفاء بكتاب واحد، يحملون المتعلمين على فهمه، قبل الانتقال إلى كتاب آخر، فيقول: "ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكتب على التعلم منه، بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعلم، مبتدئا كان أو منتهيا، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها، حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ إلى غيره" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص ٥٨٤)، حيث يرد ذلك إلى أن الجمع بين عدة كتب يؤدي إلى اختلاط الأمر على المتعلم، ويعجزه عن الفهم، ويصيبه بالكلل والتعب وانطماس الفكر، ثم اليأس من التحصيل جملة وتفصيلا .

ثانيا: قاعدة المواظبة على المجالس

أما قاعدة ابن خلدون الثانية فهي عدم لجوء المعلم إلى خلخلة نظام مجالس أو حلقات التدريس على المتعلم، لأن ذلك يسبب التذبذب في تلقي والتحصي ويؤدي إلى النسيان، فيقول في شأن ذلك: "ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٨٤)

ثالثا: قاعدة تجنب الشدة والتعنيف في التربية

يرى ضرورة الابتعاد عن العنف و الشدة، وقد خصص لذلك فصلا كاملا أسماه: في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم، حيث يقول: "وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضمّر بالمتعلم، لا سيما في أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل

من الأسهل إلى الأصعب، ولعل ابن خلدون قد وضح ذلك كما أشرنا إليه في نظرية التكرارات الثلاث السابقة.

وقد نرى كثيرا من المعلمين في أيامنا هذه لا يزالون يجهلون طرائق التعليم وأساليبه، رغم ما يبذل من الجهود في التدريب والتحضير والتكوين المنوط بالقائمين على هذه المهمة النبيلة، التي شغلت السلف الصالح منذ قرون، لذلك عمدنا إلى مسحة موجزة حول التعليم والتعلم ومبادئ التربية لدى قامة علمية من الله بها على المسلمين والعالم أجمع ألا وهو العالم القدير عبد الرحمن بن خلدون، وقد سلطنا الضوء تحديدا على كتابه "المقدمة"، هذا العالم الأسطورة الذي أخذ من كل علم بطرف، وأولى باب التربية والتعليم عناية كبيرة، لما لهما من كبير وعظيم أثر على المجتمع أولا، ثم الحضارة ثانيا، ولا تزال أعمال ابن خلدون محج المفكرين والباحثين في شتى المجالات، لا سيما مجال التربية والتعليم.

المراجع

- مبارك، حنون (١٩٨٧). مدخل للسانيات سوسير. المغرب: دار توبقال للنشر.
- الحصري، ساطع (١٩٤٤). دراسات عن مقدمة ابن خلدون ج٢. بيروت: دار الكشاف.
- شمس الدين، عبد الأمير (١٩٨٦). الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرقي. موسوعة التربية والتعليم الإسلامية. بيروت: دار اقرأ.
- بن خلدون، عبد الرحمن (٢٠٠٨). المقدمة. تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر.
- سعد الدين، محمد منير (٢٠٠١). دور الكتاب والمساجد عند المسلمين. الملتقى الوطني لتعليمية الفلسفة، المنعقد بجامعة وهران في ١٤ - ١٥ أبريل ٢٠٠١.

وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره، خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقها، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٩٠).

رابعا: قاعدة تجنب خلط العلوم

ثم ينتقل ابن خلدون إلى نصيحته الثالثة، وهي تقضي بعدم الجمع بين علمين أو أكثر على المتعلم، فيقول مبينا ذلك: "ومن المذاهب الجميلة، والطرق الواجبة في التعليم، أن لا يخلط على المتعلم علمان معا" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص ٥٨٥)، ويرد ذلك إلى انقسام البال وتشتته، مما يؤدي إلى عدم الظفر بأي من هذين العلمين، إذ يقول معللا: "فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلطان معا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة" (ابن خلدون، ٢٠٠٧، ص: ٥٨٥) وهناك من القواعد التربوية التي لم يغفل عنها ابن خلدون، الذي أبلى بلاء حسنا في مجال التربية والتعليم، والذي نجد أنفسنا غير قادرين أن نسوق كل ما دبجه في مقدمته الذهبية من قواعد ونصائح ومبادئ ونظريات.

مجمال القول في منهج ابن خلدون.

إن وجه الصواب في تعليم العلوم عامة واللغة العربية خاصة وطريق إفادتها، يشير إليه ابن خلدون مبينا أهمية مراعاة المقدرة العقلية للمتعلم من باب أن الاستعداد للتعلم عنده ضروري وهو يتم تدريجيا، مما يتوجب على المعلم/الأستاذ المعرفة بمراحل النمو عند تلاميذه وإدراكها بحيث لا يتحمل المتعلمون أعباء تزيد عن احتمال قدراتهم العقلية في الفهم والاستيعاب، ولكل مرحلة سنوية قدراتها، ومراعاة هذه القدرات شرط أساسي ليس فقط فيمن يقوم بعملية التعليم وإنما كذلك فيمن يضع المنهاج المدرسي ومفرداته في الكتب المدرسية المقررة، بحيث يتم التدرج في تلقين العلوم